٩ ـ صفورا امرأة موسى عليه السلام

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور، الآية: ٢٦] هذه آية من كلام الحكيم الحميد، ضَمَّها قرآنه المجيد، ومن أصدق من الله مَيلاً؟

بهذه الآية الكريمة أحببت أن أبدأ الحديث عن ربة الطهر والاحتشام، التي ارتضاها الله تعالى حليلة لكليمه «موسى» عليه السلام.

ولا بد لنا باديء ذي بدء من التعرف إلى نشأة «موسى» عليه السلام، وما الذي حدا به لمغادرة مسقط رأسه بمصر، وكيف ساقته قدماه إلى دار حميه، وكيف زوجه ابنته، وما الصَّدَاق الذي اتفف عليه الرجلان، في ذلك الزمان.

أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه نسب نبي الله موسى عليه السلام فقال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: ثم إن «لاوي بن يعقوب» نكح «نابتة ابْنَة ماري بن يشخر» فولدت له «عَرْشون بن لاوي» و«مَرْوَى بن لاوي» و«قاهث بن لاوي»، فنكح «قاهث بن لاوي»، «فاهي ابْنَة صين بن بتويل بن إلياس»، فولدت له «يصهر بن قاهث»، فتزوج «يصهر»، «شميت ابْنَة بتاديت بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم»، فولدت له «عمران بن يصهر»، و«قارون بن يصهر»، فنكح «عمران»، «يحيب ابْنَة شمويل بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم»، فولدت له «هارون بن عمران» و«موسى بن عمران».

وقال غير ابن إسحاق: كان عمر «يعقوب بن إسحاق» مائة وسبعاً وأربعين سنة، وولد «لاوي» له، وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة، وولد للاوي «قاهث» بعد أن مضى من عمر «لاوي» ست وأربعون سنة، ثم ولد لقاهث «يصهر»، ثم ولد ليصهر «عمرم» ـ وهو عمران ـ وكان عمر «يصهر» مائة وسبعاً سنة، وولد له «عمران» بعد أن مضى من عمره ستون سنة، ثم ولد لعمران «موسى»، وكانت أمه «يوخابد» ـ وقيل: كان اسمها «بَاخِتَة» ـ وامرأته «صفورا ابْنَة تيرون»، وهو «شعيب» النبي ﷺ، وولد «موسى»، «جرشون» و«إيليعازر»، وخرج

إلى «مَدْيَن» خائفاً، وله إحدى وأربعون سنة، وكان يدعو إلى دين «إبراهيم» وتراءى اللهَ بطور سيناء، وله ثمانون سنة(١).

وأضاف ابن جرير يقول: عن ابن إسحاق، قال: وذكر لي أنه لما تقارب زمان «موسى» أتى منجِّمو فرعون وحُزَاته ـ جمع حازٍ ـ وهو الكاهن ـ إليه، فقالوا: تَعَلَّمْ أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك، ويبدِّل دينك، فلما قالوا له ذلك، أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من العلماء، وأمر بالنساء يُسْتَحْيَيْن، فجمع القوابل من نساء أهل مملكته، فقال لهن: لا يسْقُطَنَّ على أيديكُنَّ غلام من بني إسرائيل إِلَّا قتلتموه، فكُنَّ يفعلن ذلك، وكان يذبح مَنْ فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحَبَالَى فيعذبن حتى يطرحن ما في بطونهن(٢).

وتابع ابن جرير قوله، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: لقد ذُكِرَ لي أنه كان يأمر بالقصب فيُشَقُّ حتى يجعل أمثال الشفار، ثم يصفُّ بعضه إلى بعض، ثم يأتي بالحَبَالَى من بني إسرائيل فيوقفهن عليه، فيحز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لَتَمْصَعُ بولدها ـ أي: تلقيه ـ، فيقع بين رجليها، فتظل تطؤه تتقي به حَزَّ القصب عن رجليها، لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك، وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس، وقطعت النسل، وإنهم خَوَلُكَ وعمالك، فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً، فولد «هارون» في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد «موسى» في السنة التي فيها يقتلون، فكان «هارون» أكبر منه بسنة(٣).

وأخرج ابن جرير، عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة الهَمْداني، عن ابن مسعود ـ وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه، أن ناراً أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٣٨٧).
(٣) الطبري (١/ ٣٨٨).

والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون بيت المقدس ـ رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل ألّا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا يولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم. فذلك حين يقول الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص، الآية: ٤] يقول: تجبَّر في الأرض ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص، الآية: ٤] يعني بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة ـ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [القصص، الآية: ٤] ، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه، فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا يبلغ الصغار، ويفنى الكبار، فلو أنك تبقي من أولادهم، فأمر أن يذبحوا سنة، ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد «هارون»، فترك.

فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت «أم موسى» بموسى، فلما أرادت وضعه حزنت من أجله، فأوحى الله إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص، الآية: ٧] وهو النيل ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص، الآية: ٧] ، فلما وضعته أرضعته، ثم دعت له نجاراً فجعل له تابوتاً، وجعل مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقته في اليم ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص، الآية: ١١] تعني: قُصّي أثره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص، الآية: ١١] ، إنها أخته، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة، ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري «آسية» امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى «آسية»، وظنَنَّ أن فيه مالاً، فلما نظرت إليه «آسية» وقعت عليه ورحمته وأحبته، فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه، فلم تزل «آسية» تكلمه حتى تركه لها.

قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل، وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

وَحَزَنًاۗ﴾ [القَصَص، الآية: ٨] ، فأرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فـذلـك قـول الله: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القَصَص، الآية: ١٢] ، فأخذوها، وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله، فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون.

ولما جاءت أمه أخذ منها ثديها، فكادت أن تقول: هو ابني، فعصمها الله، فـذلـك قـول الله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص، الآية: ١٠] ، وإنما سمي «موسى» لأنه وجدوه في ماء وشجر، والماء بالقبطية «مو» والشجر «شا» فذلك قول الله ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القَصَص، الآية: ١٣] فاتخذه فرعون ولداً فدعي ابن فرعون، فلما تحرك الغلام أرته أمه «آسية» صبياً، فبينما هي ترقصه وتلعب به إذ ناولته فرعون، وقالت: خذه قرة عين لي ولكَ، قال فرعون: هو قرة عين لكِ ولا لي.

قال عبد الله بن عباس: لو أنه قال: وهو لي قرة عين إذاً لآمن به؛ ولكنه أبى. فلما أخذه إليه، أخذ «موسى» بلحيته فنتفها، فقال فرعون: عليَّ بالذباحين، هذا هو! قالت «آسية»: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص، الآية: ٩] ، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني؛ أنا أضع له حُلِيًّا من الياقوت، وأضع له جمراً، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها، فوضعت له طستاً من جمر، فجاء «جَبْرائيل» فطرح في يده جمرة، فطرحها «موسى» في فيه، فأحرق لسانه، فهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨] ، فزالت عن «موسى» من أجل ذلك.

وكبر «موسى» فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثل ما يلبس، وكان إنما يدعى «موسى بن فرعون»، ثم إن فرعون ركب مركباً وليس عنده «موسى»، فلما

جاء «موسى» قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض يقال لها «مَنْف»، فدخلها نصف النهار، وقد تغلقت أسواقها، وليس في طرقها أحد، وهو قول الله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص، الآية: ١٥] يقول: هذا من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص، الآية: ١٥] يقول: من القبط: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ خائفاً أن يؤخذ ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يقول: يستغيثه، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص، الآيات: ١٥ ـ ١٨]، ثم أقبل «موسى» لينصره، فلما نظر إلى «موسى» قد أقبل نحوه ليبطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي، قال الإسرائيلي ـ وفرِق من «موسى» أن يبطش به من أجل أنه أغلظ الكلام ـ: يا موسى! ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص، الآية: ١٩]، فتركه وذهب القبطي، فأفشى عليه أن «موسى» هو الذي قتل الرجل، فطلبه فرعون، وقال: خذوه فإنه صاحبنا، وقال للذين يطلبونه: اطلبوه في بُنَيَّات الطريق، فإن «موسى» غلام لا يهتدي إلى الطريق، وأخذ «موسى» في بُنَيَّات الطريق، وجاءه الرجل وأخبره ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: الآيتان ٢٠، ٢١]. فلما أخذ «موسى» في بُنَيَّات الطريق، جاءه مَلَكٌ على فرس بيدِهِ عَنَزَة، فلما رآه «موسى» سجد له من الفَرَق ـ الخوف ـ، فقال: لا تسجد لي، ولكن اتبعني، فاتبعه، فهداه نحو «مَدْيَن».

وقال «موسى» وهو متوجه نحو «مَدْيَن»: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص، الآية: ٢٢]، فانطلق به المَلَك حتى انتهى به إلى «مَدْيَن»[1].

ثم تابع ابن جرير حديث السدي فقال:

---

(١) الطبري (١/٣٨٨، ٣٩١).

قــــال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٣] يقول كثرة من الناس يسقون، وقد حدثنا أبو عمار المروزي، قال: حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، قال: خرج «موسى» من مصر إلى «مَدْيَن»، وبينهما مسيرة ثمان ليال ـ قال: وكان يقال: نحو من الكوفة إلى البصرة ـ ولم يكن لهم طعام إلا ورق الشجر، فخرج حافياً، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عَثَّام، قال: حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس بنحوه.

رجع الحديث إلى حديث السدي: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٣] يقول: تحبسان غنمهما، فسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القَصَص، الآية: ٢٣] فرحمهما «موسى» فأتى البئر، فاقتلع صخرة على البئر، كان النفر من أهل «مَدْيَن» يجتمعون عليها حتى يرفعوها، فسقى لهما «موسى» دلواً فأروتا غنمهما، فرجعتا سريعاً، وكانتا إنما تسقيان من فضول الحياض، ثم تولى «موسى» إلى ظل شجرة من السَّمُر، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٤]، قال: قال ابن عباس: لقد قال «موسى» ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع ما يسأل الله إلا أكلة.

فلما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعاً، سألهما فأخبرتاه خبر «موسى» فأرسل إحداهما فأتته ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٥] وهي تستحي منه ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القَصَص، الآية: ٢٥] فقام معها، وقال لها: امضي، فمشت بين يديه، فضربتها الرياح فنظر إلى عجيزتها، فقال لها «موسى»: امشي خلفي، ودُلِّيني على الطريق إن أخطأت، فلما أتى الشيخ ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٥]، وقال «الآلوسي» في تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاء سقيك على أن «ما» مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن ما يستحق عليه الأجر فعله لا ما سقاه إذ هو الماء

المباح، وأسندت الدعوة إلى أبيها، وعلَّلتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة، وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى، روي أنه عليه السلام أجابها فقام معها، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك، ففعلت.

وفي رواية: أنه قال لها: كوني ورائي فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً، وروي عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم أنها مشت أولاً أمامه، فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ففعلت حتى أتيا دار «شعيب» عليه السلام.

وتابع «الآلوسي» رحمه الله قوله: واختلف في الداعي له عليه السلام إلى الإجابة فقيل: الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن «موسى» عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية الشيخ، ويستظهر برأيه، لا طمعاً بما صرحت به من الأجر، ألا ترى إلى ما أخرج ابن عساكر، عن أبي حازم، قال: لما دخل «موسى» على «شعيب» عليه السلام إذا هو بالعشاء، فقال له «شعيب»: كل، قال «موسى»: أعوذ بالله تعالى، قال: ولِمَ؟ ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وإنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله! ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس «موسى» عليه السلام فأكل.

وقيل: الداعي له ما به من الحاجة، وليس بمستنكر منه ـ عليه السلام ـ أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة[١].

وتابع ابن جرير حديث السدي، فقال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص، الآية: ٢٦]، وهي الجارية التي دعته، قال الشيخ: هذه القوة قد رأيت حين اقتلع الصخرة، أرأيت أمانته ما يدريك ما هي؟ قالت: إني مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني في نفسي، وأمرني أن أمشي خلفه، قال له الشيخ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي

(١) روح المعاني (٢٠/ ٦٥).

ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص، الآيتان: ٢٧،٢٨]، إما ثمانياً وإما عشراً[(١)].

وروى الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ، قال: «سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما».

وتابع ابن جرير حديث السدي، فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص، الآية: ٢٩] فضلَّ الطريق، قال عبد الله بن عباس: كان في الشتاء، ورفعت له نار، فلما ظَنَّ أنها نار ـ وكانت من نور الله ـ ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ فإن لم أجد خبراً أتيتكم منها بشهاب قبس ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص، الآية: ٢٩] ـ قال: من البرد ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص، الآية: ٣٠]. ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل، الآية: ٨] فلما سمع «موسى» النداء فزع وقال: الحمد لله رب العالمين، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص، الآية: ٣٠] ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه، الآيتان: ١٧، ١٨]، يقول: أضرب بها الورق، فيقع للغنم من الشجر، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه، الآية: ١٨] يقول: حوائج أخرى، أحمل عليها المِزْوَد والسقاء، فقال له: ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه، الآيتان: ١٩ ـ ٢٠] ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [القصص، الآية: ٣١]، يقول: لم ينتظر، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل، الآية: ١٠]، ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ... وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص، الآيتان: ٣١، ٣٢]، العصا واليد آيتان، فذلك حين يدعو «موسى» ربه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص، الآيتان: ٣٣، ٣٤]، قال: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن

(١) الطبري (١/٣٩٨).

يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشُّعَرَاء، الآية: ١٤] ـ يعني بالقتيل ـ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ [القَصَص، الآية: ٣٥] ـ والسلطان الحجة ـ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القَصَص، الآية: ٣٥]، ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشُّعَرَاء، الآية: ١٦].

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القصص، الآية: ٢٩]، ـ خرج فيما ذكر لي ابن إسحاق، عن وهب بن منبه اليماني ـ فيما ذكر له ـ عنه، ومعه غنم له، ومعه زند له وعصاه في يده يهش بها على غنمه نهاره، فإذا أمسى اقتدح بزنده ناراً، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه يتوكأ على عصاه، وكانت ـ كما وُصِفَ لي عن وهب بن منبه ـ ذات شعبتين في رأسها، ومحجن في طرفها.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عمن لا يتَّهم من أصحابه، أن كعب الأحبار قدم مكة، وبها «عبد الله بن عمرو بن العاص» فقال «كعب»: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم فإنه عالم، سلوه عن شيء من الجنة، وضعه الله للناس في الأرض، وسلوه ما أول ما وضع في الأرض؟ وما أول شجرة غرست في الأرض؟ فسئل «عبد الله» عنها فقال: أما الشيء الذي وضعه الله للناس في الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود، وأما أول ما وضع في الأرض فبرهوت باليمن يرده هام الكفار، وأما أول شجرة غرسها الله في الأرض، فالعوسجة التي اقتطع منها «موسى» عصاه، فلما بلغ ذلك «كعباً» قال: صدق الرجل، عالم والله!.

قال: فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته، وابتدأه فيها بنبوته وكلامه، أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، فأخرج زنده ليقدح ناراً لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح، ويعلم وجه سبيله، فأصلد عليه زنده فلا يوري له ناراً، فقدح حتى إذا أعياه لاحت النار فرآها ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه، الآية: ١٠]. بقبس تصطلون، وهدى: عن علم الطريق الذي أضللنا بنعت من خبير، فخرج نحوها، فإذا هي في شجرة من العُلَّيق. وبعض أهل الكتاب يقول: في عَوْسَجَة، فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة، فلما أراد

obeikandl.com

الرجعة دنت منه، ثم كُلِّمَ من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس، وقال الله: يا موسى ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه، الآية: ١٢]، فألقاهما، ثم قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: الآيتان ١٧، ١٨] أي: منافع أخرى ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: الآيتان ١٩، ٢٠]، قد صار شعبتاها فمها، وصار محجنها عُرْفاً لها، في ظهر تهتز، لها أنياب، فهي كما شاء الله أن تكون، فرأى أمراً فظيعاً فولَّى مدبراً ولم يُعَقِّب، فناداه ربه: أن يا موسى! أقبل ولا تخف ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه، الآية: ٢١]. أي: سيرتها عصاً كما كانت. قال: فلما أقبل قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه، الآية: ٢١]، أدخل يدك في فمها، وعلى «موسى» جبة صوف، فَلَفَّ يده بكمه، وهو لها هائب، فنودي أن أَلْقِ كمك عن يدك، فألقاها عنها، ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها، فإذا هي عصاه في يده، ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها، ومحجنها بموضعه الذي كان لا ينكر منها شيئاً، ثم قيل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النَّمل، الآية: ١٢] أي: من غير برص ـ وكان «موسى» عليه السلام رجلاً آدم، أقنى، جعداً، طُوَالاً ـ فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج، ثم رَدَّها في جيبه، فخرجت كما كانت على لونه، ثم قال: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤] أي: يبيِّن لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص، الآية: ٣٥].

وتابع ابن جرير حديث السدي: فأقبل «موسى» إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً، فتضيَّف على أمه، وهو لا يعرفهم، فأتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها «الطَّفَيْشَلَ» ـ نوع من المَرَق ـ، فنزل في جانب الدار.

فجاء «هارون»، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه، فأخبرته أنه ضيف، فدعاه فأكل معه، فلما أن قعدا تحدثا، فسأله «هارون»: من أنت؟ قال: أنا «موسى»، فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه، فلما أن تعارفا قال له «موسى»: يا

«هارون!» انطلق معي إلى فرعون، إن الله قد أرسلنا إليه، فقال «هارون»: سمعاً وطاعة، فقامت أمهما فصاحت، وقالت: أنشدكما الله ألّا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما، فأبيا، فانطلقا إليه ليلاً، فأتيا الباب فضرباه، ففزع فرعون، وفزع البواب، وقال فرعون: مَنْ هذا الذي يضرب بابي في هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البواب، فكلمهما، فقال له «موسى»: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف، الآية: ٤٦]، ففزع البواب، فأتى فرعون فأخبره، فقال: إن هٰهنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين، قال: أدخله، فدخل، فقال: إني رسول رب العالمين، أن أرسل معي بني إسرائيل، فعرفه فرعون، فقال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء، الآيتان: ١٨، ١٩] معنا على ديننا هذا الذي تعيب! ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء، الآيتان: ٢٠، ٢١] ـ والحكم والنبوة ـ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء، الآيتان: ٢١، ٢٢] وربيتني قبل وليداً! ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء، الآية: ٢٣]، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: الآيتان ٤٩،٥٠]، يقول: أعطى كل دابة زوجها، ثم هدى للنكاح، ثم قال له: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٠٦]، وذلك بعدما قال له من الكلام ما ذكر الله تعالى، قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٣٠،٣٢]. ـ والثعبان الذكر من الحيات ـ فاتحة فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذُعِرَ منها ووثب، فأحدث ـ ولم يكن يحدث قبل ذلك ـ وصاح: يا «موسى»! خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها «موسى» فعادت عصاً، ثم نزع يده وأخرجها من جيبه، فإذا هي بيضاء للناظرين، فخرج «موسى» من عنده على ذلك، وأبى فرعون أن يؤمن به، أو يرسل معه بني إسرائيل، وقال لقومه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص، الآية: ٣٨].

فلما بنى له الصرح ارتقى فوقه، فأمر بنُشَّابة فرمى بها نحو السماء، فَرُدَّت إليه، وهي ملطخة دماً، فقال: قد قتلت إله «موسى»(١).

ويل له من كذاب مبين! ثم ويل له حين يقف ذليلاً صاغراً بين يدي رب العالمين! ثم تابع ابن جرير حديث السدي فقال: ذُكِرَ أن الآيات التي ابتلى الله بها قوم فرعون كانت قبل اجتماع «موسى» والسحرة، وقال لما رجع إليهم السهم ملطخاً بالدم، قال: قد قتلنا إله «موسى»، ثم إن الله أرسل عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فغرق كل شيء لهم، فقالوا: يا «موسى»! ادْعُ لنا ربك يكشف عنا، ونحن نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فكشفه الله عنهم، ونبتت زروعهم، فقالوا: ما يَسرُّنا أنا لم نمطر، فبعث الله عليهم الجراد فأكل حروثهم، فسألوا «موسى» أن يدعو ربه فيكشفه ويؤمنوا به، فدعا فكشفه، وقد بقي من زروعهم بقية، فقالوا: لن نؤمن وقد بقي لنا من زروعنا بقية، فبعث الله عليهم الدَّبا ـ وهو القُمَّل ـ فَلَحَسَ الأرض كلها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء دَباً، حتى إن أحدهم ليبني الأسطوانة بالجص والآجر، فيزلقها حتى لا يرتقي فوقها شيء من الذباب، ثم يرفع فوقها الطعام، فإذا صَعِدَ إليه ليأكله وجده ملآن دَباً، فلم يصبهم بلاء كان أشد عليهم من الدَّبَا، وهو الرِّجز الذي ذكره الله في القرآن أنه وقع عليهم، فسألوا «موسى» أن يدعو ربه فيكشفه عنهم ويؤمنوا به، فلما كشف عنهم أبوا أن يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فكان الإسرائيلي يأتي هو والقبطي فيستقيان من ماء واحد، فيخرج ماء هذا القبطي دماً، ويخرج للإسرائيلي ماء، فلما اشتد ذلك عليهم سألوا «موسى» أن يكشفه ويؤمنوا به، فكُشِف ذلك عنهم، فأبوا أن يؤمنوا، فذلك حين يقول الله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ [الزخرف، الآية: ٥٠] ، ما أعطوا من العهود، وهو حين يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٣٠] ـ وهو الجوع ـ ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٣٠] .

ثم إن الله ﷻ أوحى إلى «موسى» و«هارون» أن: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه، الآية: ٤٤] ، فأتياه فقال له «موسى»: هل لك يا

(١) الطبري (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٥).

فرعون! في أن أعطيك شبابك ولا تهرم، وملكك لا ينزع منك، ويرد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مت دخلت الجنة؟ تؤمن بي، فوقعت في نفسه هذه الكلمات، وهي اللبنة، فقال: كما أنت حتى يأتي «هامان»، فلما جاء «هامان»، قال له: أشعرت أن ذلك الرجل أتاني؟ قال: من هو؟ ـ وكان قبل ذلك، إنما يسميه الساحر، فلما كان ذلك اليوم لم يسمه الساحر ـ قال فرعون: «موسى»، قال: وما قال لك؟ قال: قال لي: كذا وكذا، قال «هامان»: وما رددت عليه؟ قال: قلت: حتى يأتي «هامان» فأستشيره، فعجَّزه «هامان»، وقال: قد كان ظني بك خيراً من هذا، تصير عبداً يَعْبُد بعد أن كنت رباً يُعْبَد! فلذلك حين خرج عليهم فقال لقومه وجمعهم فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعات، الآية: ٢٤]، وكان بين كلمته ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصص، الآية: ٣٨]، وبين قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعات، الآية: ٢٤] أربعون سنة، وقال لقومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشُّعَراء، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧]، قال فرعون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه، الآيتان: ٥٧، ٥٨] يقول: عدلاً، قال «موسى»: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه، الآية: ٥٩] ـ وذلك يوم عيد لهم ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه، الآية: ٦٠]، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، فحشروا عليه السحرة، وحشروا الناس ينظرون، يقول: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشُّعَراء، الآيتان: ٣٩، ٤٠] إلى قوله: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشُّعَراء، الآية: ٤١] يقول: عطية تعطينا ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشُّعَراء، الآية: ٤٢] فقال لهم «موسى»: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه، الآية: ٦١]، يقول: يهلككم بعذاب، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه، الآية: ٦٢] من دون «موسى» و«هارون»، وقالوا في نجواهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ [طه، الآية: ٦٣]، يقول: بأشراف قومكم، فالتقى «موسى» وأمير السحرة، فقال له «موسى»: أرأيتك إن غلبتك، أتؤمن بي

وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال: نعم، قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومننَّ بك، ولأشهدن أنك على حق - وفرعون ينظر إليهما - وهو قول فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٣]، إذ التقيتما لتتظاهرا ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٣]، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ﴾ [الأعراف، الآية: ١١٥]، قال لهم «موسى»: ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم - وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس منهم رجل إلا ومعه حبل وعصاً - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١١٦]، يقول: فرَّقوهم، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه، الآية: ٦٧]، فأوحى الله إليه، ألَّا تخف، ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه، الآية: ٦٩] فألقى «موسى» عصاه، فأكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف، الآيتان: ١٢١، ١٢٢]، قال فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه، الآية: ٧١] فقتلهم وقطَّعهم - كما قال عبد الله بن عباس - حين قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٦]، قال: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء(١).

ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه «موسى» عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل، فخرج بهم وأتبعهم فرعون وجنوده، فقال أصحاب «موسى»: إنا لمدركون، يا «موسى!» أوذينا من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، ومن بعد ما جئتنا، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، وكان البحر أمامهم، وفرعون خلفهم، فقال لهم: إن معي ربي، فتقدم «هارون» فضرب البحر فلم يصنع شيئاً، ثم تقدم «موسى» وكنَّاه «أبا خالد»، ثم ضربه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء، الآية: ٦٣]. ورأى بنو إسرائيل أمامهم اثني عشر فِرْقاً فدخلوها، ثم دخل في إثرهم فرعون وأصحابه، حتى إذا خرج «موسى» ومن معه من الطرف الآخر، أمر الله تعالى البحر بأخذ فرعون وشيعته، فكانوا من المغرقين.

وحتى لا يختلف الناس في مصير فرعون، ويقول ناس إنه لم يمت، وإنما

(١) الطبري (١/ ٤١٠، ٤١٣).

خرج من الطرف الآخر، ويقول آخرون: بل كان بين الغرقى، فقد أمر الله البحر أن يلفظه إلى الشاطىء ليرى أتباعُه وأعداؤه تلك النهاية المخزية لذلك الإلٰه المزعوم الذي أكره الناس على عبادته حيث قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّازعَات، الآيتان: ٢٤، ٢٥] أخذ عزيز مقتدر، والحمد لله رب العالمين.

ونقل أبو جعفر الطبري، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: حدثت أنه لما دخلت بنو إسرائيل، فلم يبق منهم أحد أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن يتقدم، فعرض له «جَبْرائيل» على فرس أنثى وَدِيق ـ الفرس الوديق: التي تريد الفحل ـ، فقرَّبها منه، فشمها الفحل، ولما شَمَّها قدَّمها، فتقدم معه الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون أن فرعون قد دخل دخلوا معه، وجبرائيل أمامه، فهم يتبعون فرعون، و«ميكائيل» على فرس خلف القوم يشحذهم يقول: الحقوا بصاحبكم، حتى إذا فصل «جَبْرَائيل» من البحر ليس أمامه أحد طبَّق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذله وخذلته نفسه، نادى: أن لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء «جَبْرائيل» إلى النبي عليه السلام فقال: يا محمد! لقد رأيتني وأنا أدس من حَمَإِ البحر في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة! يقول الله: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يُونس، الآيتان: ٩١، ٩٢] أي: سواء لم يذهب منك شيء ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يُونس، الآية: ٩٢] أي: عبرة وبيِّنة، فكان يقال: لو لم يخرجه الله ببدنه لشك فيه بعض الناس[(١)].

وهكذا طوى الله صفحة «فرعون» أحد العتاة المستكبرين، الذي أراد أن ينازع فاطر السماوات والأرضين، في ملكوته فقصمه الله فكان عبرة للمعتبرين.

---

(١) الطبري (١/ ٤٢١).

وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه محمد بن زياد، قال: سمعت أبا هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما؛ قذفته في النار**»![(١)]

ولكن، وبعد القضاء على فرعون وبطانته، هل انتهت متاعب «موسى» ﷺ مع بني إسرائيل؟ كلا، لم تنته، فقد لقي منهم العنت والمرارة والأسى، وكانت يد الزوج الحنون «صفورا» تمسح عن جبينه كل ذلك حين يرجع إليها متعباً مكدوداً، وتهيىء له كل أسباب الراحة والهناء.

والحق أن خير الأزواج لبعولتهن، المرأة الصالحة الملتزمة بأمر الله تعالى، المطبقة لسنة رسول الله ﷺ، المعينة لزوجها على أمور دينه.

وكانت «صفورا» ﷺ، لا تألو جهداً في إسعاد «كليم الله» ﷺ تطيعه إذا أمرها، وتنتهي عن كل ما ينهاها، وتجعل رضاءه مقدماً على رضاها، ولما كان الصَدَاق الذي اتفق عليه «موسى» ﷺ مع أبيها «شعيب» ﷺ أن يعمل لديه ويرعَى له غنمه ثماني حجج أو عشراً فقد وفَّى له «موسى» ﷺ بالأجل الأتم وهو عشر سنوات، ثم انطلق مع زوجه الحامل «صفورا» لما أراده الله، ويدعو فرعون إلى الله بعد أن ودَّع حَمَاه «شعيباً» ﷺ وكان زواجه قد أثمر ولدين، خلال الأجل المشروط، وبعد وصول أسرة «الكليم» إلى أرض الكنانة، قلَّت وانقطعت أخبار «صفورا» وأولادها، وإن كان المكان الذي تنزل فيه يفيض بالشذا والعبير ﷺ، وأدخلها في رحمته، وعلى بعلها «موسى» صلاة الله وسلامه.

(١) رواه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكِبْر.